إِلَى الْخَارِجِ بِسُرْعَةٍ. وَاهْتَزَّتِ الْأَرْضُ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَثَالِثَةً. وَمِثْلَمَا بَدَأَ سَرِيعًا، انْتَهَى سَرِيعًا. زِلْزَالٌ! قَرَأْتُ عَنْهُ فِي صِبَايَ، لَكِنَّنِي لَمْ أَشْهَدْ أَيَّ زِلْزَالٍ فِي حَيَاتِي قَطُّ.

فَكَّرْتُ: «حَسَنًا، أَتَمَنَّى أَلَّا يَحْدُثَ مِثْلُ هَذَا ثَانِيَةً أَبَدًا.» وَعُدْتُ إِلَى مَنْزِلِي وَأَزَحْتُ الصُّخُورَ مِنْ كَهْفِ التَّخْزِينِ.

وَبِالرُّغْمِ مِنْ تَرَاجُعِ الْأَمْطَارِ بِحُلُولِ مَايُو، تَبِعَتِ الزِّلْزَالَ عَاصِفَةٌ عَاتِيَةٌ. وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِي لِانْتِهَائِهَا، سِرْتُ فِي جَوْلَتِي الْمُعْتَادَةِ هَابِطًا نَحْوَ الشَّاطِئِ، وَكَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ مَا عَلَى الشَّاطِئِ، وَلَمْ يَبْدُ كَأَعْشَابٍ بَحْرِيَّةٍ أَوْ أَخْشَابٍ طَافِيَةٍ مِمَّا اعْتَدْتُ رُؤْيَتَهُ هُنَاكَ بِالْأَسْفَلِ.

فَقُلْتُ بِصَوْتٍ عَالٍ بَيْنَمَا سِرْتُ نَحْوَ هَذَا الشَّيْءِ كَيْ أَرَاهُ عَنْ قُرْبٍ: «مَا هَذَا؟ عجبًا، إِنَّهَا السَّفِينَةُ!»

قَضَيْتُ النَّهَارَ فِي تَجْمِيعِ كُلِّ أَجْزَائِهَا وَحَمْلِهَا بَعِيدًا أَعْلَى الشَّاطِئِ. وَانْجَرَفَ بِرْمِيلٌ آخَرُ مِنَ الْبَارُودِ إِلَى الشَّاطِئِ أَيْضًا، وَلَكِنَّ الْمِيَاهَ كَانَتْ قَدْ أَفْسَدَتْهُ. وَبَدَلًا مِنَ الْعَوْدَةِ لِمَنْزِلِي لِأَنْعَمَ بِغَفْوَتِي الْمُعْتَادَةِ، قَضَيْتُ بَاقِيَ الْيَوْمِ فِي مُحَاوَلَةِ إِعَادَةِ بِنَاءِ السَّفِينَةِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَمَلٌ. وَمَعَ ذَلِكَ، قَرَّرْتُ الِاحْتِفَاظَ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهَا وَحَسْبُ، فَرُبَّمَا يُمْكِنُ الِاسْتِفَادَةُ مِنْهَا. وَاسْتَغْرَقَ مِنِّي تَفْكِيكُ السَّفِينَةِ بِالْكَامِلِ قُرَابَةَ الشَّهْرِ. وَبِحُلُولِ مُنْتَصَفِ يُونْيُو، كَانَتْ مُفَكَّكَةً لِأَجْزَاءَ، وَأَخْفَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ؛ فَلَا يُمْكِنُكَ التَّخَلِّي عَنِ الْحَذَرِ.

عَلَّمَتْنِيَ الْحَيَاةُ عَلَى الْجَزِيرَةِ عِدَّةَ دُرُوسٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَوَّلُهَا مَا حَدَثَ فِي ذَاتِ شَهْرِ يُونْيُو. وَنَظَرًا لِأَنِّي كُنْتُ أَقْضِي وَقْتًا طَوِيلًا فِي الْأَسْفَلِ بِجِوَارِ الْمَاءِ كَيْ أُفَكِّكَ السَّفِينَةَ، فَكُنْتُ هُنَاكَ حِينَ رَأَيْتُ سُلَحْفَاةً، وَتَحَمَّسْتُ. فَبَعْدَ شُهُورٍ مِنْ أَكْلِ الْحَمَامِ وَالْمَاعِزِ، سَتَكُونُ السُّلَحْفَاةُ تَغْيِيرًا مُحَبَّبًا إِلَى النَّفْسِ. وَتَنَاوَلْتُ عَشَاءً شَهِيًّا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ.

وَبَعْدَ مُرُورِ أَيَّامٍ وَأَيَّامٍ، مَرِضْتُ لِدَرَجَةٍ مُمِيتَةٍ. فَكُنْتُ مَحْمُومًا وَأَصَابَتْنِي تَقَلُّصَاتٌ رَهِيبَةٌ فِي مَعِدَتِي، فَتَاهَ عَقْلِي وَأَخَذْتُ أَتَقَلَّبُ فِي فِرَاشِي، وَطَارَدَتْ لَيَالِيَّ الْأَحْلَامُ الْمُرِيعَةُ، فَبَكَيْتُ وَبَكَيْتُ، مُشْتَاقًا لِأُمِّي وَأَبِي، وَلَعَنْتُ قَرَارِي لِلذَّهَابِ لِلْبَحْرِ، وَلَعَنْتُ هَجْرِي لِمَزْرَعَتِي. وَلَكِنَّ الْأَهَمَّ أَنِّي لَعَنْتُ الظُّرُوفَ الَّتِي أَلْقَتْ بِي فِي جَزِيرَةِ الْيَأْسِ تِلْكَ.

بَعْدَ ذَلِكَ انْتَهَى الْأَمْرُ، وَتَرَكَنِي الْمَرَضُ شَاعِرًا بِالِاضْطِرَابِ وَالضِّيقِ. لِمَ حَدَثَ لِي كُلُّ هَذَا؟ وَكَيْفَ سَأَنْجُو مِنْ هَذِهِ المِحْنَةِ؟ وَلِكَمْ مِنَ الْوَقْتِ سَأَبْقَى هُنَا؟ وَهَلْ سَيَأْتِي أَحَدٌ لِإِنْقَاذِي؟ كَانَ جِسْمِي فِي غَايَةِ الْوَهَنِ، وَلَمْ أَسْتَعِدْ قُوَّتِي عَلَى مَدَى الْعَدِيدِ وَالْعَدِيدِ مِنَ الْأَسَابِيعِ.

الفصل السادس عشر

جَزِيرَةُ الِاكْتِشَافِ

عِنْدَمَا بَدَأْتُ فِي الشُّعُورِ بِالتَّحَسُّنِ قَرَّرْتُ اسْتِكْشَافَ الْجَزِيرَةِ كَمَا يَنْبَغِي، وَأَرَدْتُ التَّعَرُّفَ عَلَى مَا يُحِيطُ بِي، فَرُبَّمَا يُسَاعِدُنِي التَّفْكِيرُ فِي الْجَزِيرَةِ عَلَى أَنَّهَا بَيْتِي وَلَيْسَ مَكَانًا عَلِقْتُ فِيهِ. وَحَلَّ الْآنَ مَوْسِمُ الْجَفَافِ، وَعَزَمْتُ عَلَى الذَّهَابِ لِلْجَدْوَلِ حَيْثُ أَبْحَرْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الطَّوْفِ وَمَعِي مُؤَنِي مِنَ السَّفِينَةِ. وَبِمُجَرَّدِ وُصُولِي إِلَى هُنَاكَ، سِرْتُ بِطُولِ الْجَدْوَلِ حَتَّى تَمَلَّكَنِيَ التَّعَبُ وَعُدْتُ أَدْرَاجِي. وَكَانَ هناك الْعَدِيدُ مِنَ النَّبَاتَاتِ الَّتِي لَمْ أَعْرِفْهَا؛ لِذَا أَخَذْتُ مَعِي عَيِّنَاتٍ لِأَعُودَ بِهَا إِلَى الْمُخَيَّمِ، وَوَجَدْتُ أَيْضًا نَبَاتَاتٍ أَعْرِفُهَا، مِثْلَ الأَلَوَةِ. وَكُنْتُ فَخُورًا جِدًّا بِاكْتِشَافَاتِي!

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، سِرْتُ لِمَسَافَةٍ أَبْعَدَ، وَتَحَوَّلَتِ الْأَرْضُ الْخَضْرَاءُ الْمُزْدَهِرَةُ إِلَى غَابَةٍ خَشَبِيَّةٍ كَثِيفَةٍ. فَكَانَ يُوجَدُ أَشْجَارٌ كَبِيرَةٌ مُثْقَلَةٌ بِالْفَاكِهَةِ النَّاضِجَةِ، منها الشَّمَّامُ وَالْكَرْمَةُ! وَلَمْ أَكُنْ أُصَدِّقُ مَدَى وَفْرَةِ الْأَشْجَارِ وَالْكَرْمَةِ، فَقَرَّرْتُ التَّخْيِيمَ فِي الْبُسْتَانِ لِقَضَاءِ اللَّيْلِ؛ لِذَا صَعِدْتُ إِلَى أَعْلَى شَجَرَةٍ جَيِّدَةٍ وَمَتِينَةٍ وَغَرِقْتُ فِي النَّوْمِ.

كَانَ الصَّبَاحُ مُشْرِقًا وَصَافِيًا. اتَّبَعْتُ نَفْسَ الْمَسَارِ وَأَكْمَلْتُ سَيْرًا جِهَةَ الشَّمَالِ، وَهُنَاكَ وَجَدْتُ فَتْحَةً لِمَسَاحَةٍ نَضِرَةٍ، وَخَضْرَاءَ، وَمُزْدَهِرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَكَانَتْ رَائِعَةً، وَبَدَتْ كَأَنَّهَا حَدِيقَةٌ مَزْرُوعَةٌ. وَكَانَتْ أَشْجَارُ اللِّيمِ وَاللَّيْمُونِ مُزْدَهِرَةً، مِثْلُهَا مِثْلُ شَجَرِ الشَّمَّامِ وَالْعِنَبِ. وَكَانَ هُنَاكَ أَيْضًا أَشْجَارُ الْكَاكَاوِ وَالْبُرْتُقَالِ، لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ مُثْمِرَةً. وَقَطَفْتُ مِنَ الْفَاكِهَةِ الطَّازَجَةِ قَدْرَ مَا أَمْكَنَنِي حَمْلُهُ.

عُدْتُ بِاتِّجَاهِ أَوَّلِ بُسْتَانٍ وَجَدْتُهُ، وَقَرَّرْتُ أَخْذَ بَعْضِ الْعِنَبِ لِلْبَيْتِ أَيْضًا. وَأَخَذْتُ وَقْتًا طَوِيلًا جِدًّا كَيْ أَرْجِعَ لِلْمُخَيَّمِ. وَعِنْدَ وُصُولِي، أَخَذَ شيبي يَنْبَحُ؛ فَكَانَ مَسْرُورًا جِدًّا لِرُؤْيَتِي. فَإِجْمَالًا، كُنْتُ غَائِبًا لِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ!

شَعَرْتُ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ حِينَ اكْتَشَفْتُ أَنَّ الْعِنَبَ انْسَحَقَ فِي طَرِيقِي إِلَى الْبَيْتِ، إِلَّا أَنَّ اللِّيمَ وَاللَّيْمُونَ كَانَا صَالِحَيْنِ، فَصَبَبْتُ مَاءً حَسَنًا وَبَارِدًا فِي إِنَاءٍ، ثُمَّ أَضَفْتُ الْفَاكِهَةَ، فَكَانَ رَائِعًا بِحَقٍّ.

وَعِنْدَمَا انْطَلَقْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، حَمَلْتُ مَعِي حَقِيبَتَيْنِ كَيْ أَتَمَكَّنَ مِنْ جَمْعِ الْمَزِيدِ مِنَ الْفَاكِهَةِ. وَبَدَلًا مِنْ أَخْذِ الْعِنَبِ لِلْبَيْتِ، قَطَفْتُ الْعِنَبَ وَعَلَّقْتُهُ عَلَى أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ الْأُخْرَى حَتَّى يَجِفَّ لِيُصْبِحَ زَبِيبًا، ثُمَّ مَلَأْتُ حَقِيبَتِي بِالْمَزِيدِ مِنَ الْفَاكِهَةِ وَاتَّجَهْتُ عَائِدًا إِلَى مُخَيَّمِي.

وَنَضِجَ زَبِيبِي فَأَصْبَحَ رَائِعًا وَلَذِيذَ الْمَذَاقِ. وَأَقَمْتُ مَأْوًى صَغِيرًا فِي الْوَادِي، وَأَسْمَيْتُهُ مَنْزِلِي الصَّيْفِيَّ!

وَمَضَى الْآنَ عَلَى وُجُودِي فِي الْجَزِيرَةِ سَنَةٌ كَامِلَةٌ. وَكَانَ يَوْمُ الذِّكْرَى السَّنَوِيَّةِ تَعِيسًا فِي رَأْيِي. وَقَضَيْتُ مُعْظَمَهُ مُفَكِّرًا فِي كُلِّ مَا حَدَثَ. وَآخِرُ جُمْلَةٍ كَتَبْتُهَا فِي يَوْمِيَّاتِي لِهَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ: «لِكَمْ مِنَ الْوَقْتِ سَأَظَلُّ بَاقِيًا هُنَا؟»

الفصل السابع عشر

روبنسون الْمُزَارِعُ

بَدَأَتْ سَنَتِي الثَّانِيَةُ عَلَى الْجَزِيرَةِ. وَعَلَى مَدَى الِاثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا الْمَاضِيَةِ كُنْتُ قَدْ عَلِمْتُ الْكَثِيرَ عَنْهَا. فَبَدَلًا مِنَ الْمَوَاسِمِ الْأَرْبَعَةِ الْمُحَدَّدَةِ الَّتِي عَرَفْتُهَا فِي بَلَدِي فِي إِنْجِلْتِرَا، كَانَ لِلطَّقْسِ هُنَا دَوْرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ تَمَامًا؛ فَهُنَا مَوْسِمَانِ فَقَطْ: أَحَدُهُمَا مُمْطِرٌ وَالْآخَرُ جَافٌّ. فَيُمْكِنُ أَنْ تُمْطِرَ لِثَلَاثَةِ شُهُورٍ ثُمَّ تَجِفُّ لِنَفْسِ الْفَتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ. وَعِلْمِي بِهَذَا كَانَ يَعْنِي أَنَّ بِوُسْعِيَ الْبَدْءَ فِي ذَلِكَ الْحِينِ فِي التَّحْضِيرِ لِلشُّهُورِ الْمُمْطِرَةِ كَيْ لَا أُضْطَرَّ لِقَضَاءِ الْكَثِيرِ مِنَ الْوَقْتِ فِي الْخَارِجِ.

وَكَانَ ذَلِكَ فِي قُرَابَةِ الْوَقْتِ الَّذِي حَاوَلْتُ فِيهِ إِنْبَاتَ بَعْضِ الْمَحَاصِيلِ، فَزَرَعْتُ بَعْضَ الشَّعِيرِ وَالْأُرْزِ الَّذِي نَمَا فِي سَاحَتِي الْأَمَامِيَّةِ سَابِقًا فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ كَيْ أَحْصُلَ عَلَى بُذُورِهَا. وَبَاءَتْ مُحَاوَلَتِي الْأُولَى لِإِنْمَاءِ أَيِّ شَيْءٍ مُفِيدٍ بِالْفَشَلِ التَّامِّ، فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ سَيُؤَثِّرُ مَوْسِمَا الْجَزِيرَةِ، الْمُمْطِرُ وَالْجَافُّ، عَلَى الْمَحَاصِيلِ؛ وَلِذَا زَرَعْتُ بُذُورِي الْأُولَى بَعْدَ الْمَوْسِمِ الْمُمْطِرِ مُبَاشَرَةً. حَسَنًا، كَانَ هَذَا خَطَأً! فَلَمْ أُفَكِّرْ فِي مَدَى الْجَدْبِ الْفِعْلِيِّ فِي فَصْلِ الْجَفَافِ! وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الرَّائِعِ أَنَّنِي لَمْ أَسْتَخْدِمْ كُلَّ الْبُذُورِ الَّتِي لَدَيَّ، فَأَبْقَيْتُ الْكَثِيرَ تَحَسُّبًا لِاحْتِيَاجِي مُحَاوَلَةَ الزِّرَاعَةِ مُجَدَّدًا.

وَالْآنَ، بَعْدَمَا عَلِمْتُ أَنَّ بُذُورِي تَحْتَاجُ جَوًّا رَطْبًا، انْتَظَرْتُ كَيْ أَزْرَعَهَا بِحُلُولِ الْمَوْسِمِ الْمُمْطِرِ الْقَادِمِ، وَفَكَّرْتُ كَذَلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا لَا يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَحْسَنِ أَنْ أَزْرَعَهَا فِي سَاحَتِي، فَالْفَاكِهَةُ تَنْمُو عَلَى نَحْوٍ جَيِّدٍ جِدًّا فِي الْوَادِي؛ لِذَا قَرَّرْتُ أَنَّ هَذِهِ التُّرْبَةُ هِيَ الْمُنَاسِبَةُ لِمَحَاصِيلِي.

وَنَجَحْتُ فِي مُحَاوَلَتِي الثَّانِيَةِ! نَمَتِ الْمَحَاصِيلُ صَحِيحَةً وَقَوِيَّةً، وَلِأَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مَوْسِمَانِ مَطِيرَانِ فِي الْعَامِ، عَرَفْتُ أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ الِاعْتِمَادَ عَلَى الْأَقَلِّ عَلَى مَحْصُولَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

وَفِي أَثْنَاءِ الْمَطَرِ، كُنْتُ أبقى فِي الدَّاخِلِ، وَأَظَلُّ مُنْشَغِلًا بِمُحَاوَلَةِ صُنْعِ أَشْيَاءَ مُفِيدَةٍ. أَوَّلًا، حَاوَلْتُ عَمَلَ سَلَّةٍ، فَعِنْدَمَا كُنْتُ صَبِيًّا، ذَهَبْتُ مَعَ وَالِدِي لِمُشَاهَدَةِ صَانِعِ السِّلَالِ فِي الْمَدِينَةِ؛ لِذَا كُنْتُ أَعْرِفُ عَلَى نَحْوٍ يَشُوبُهُ الْغُمُوضُ كَيْفِيَّةَ عَمَلِ السَّلَّةِ، لَكِنَّ تَحْوِيلَ هَذِهِ الْأَفْكَارِ إِلَى حَيِّزِ التَّنْفِيذِ كَانَ قِصَّةً مُخْتَلِفَةً بِالْكَامِلِ.

وَقَبْلَ بَدْءِ الْأَمْطَارِ، اسْتَخْلَصْتُ بَعْضَ الْخَشَبِ مِنْ شَجَرِ النَّخِيلِ الْمَزْرُوعِ بِجِوَارِ مَنْزِلِي الصَّيْفِيِّ. وَكَانَتْ هَذِهِ السِّيقَانُ الْخَشَبِيَّةُ مَوْجُودَةً بِجِوَارِ النَّارِ، فَجَفَّتْ عَلَى مَدَى أَشْهُرٍ. وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَادَّةَ الْخَامَ الَّتِي أَرَدْتُ اسْتِخْدَامَهَا لِعَمَلِ السِّلَالِ.

بَدَتِ الْأَعْدَادُ الْقَلِيلَةُ الْأُولَى مِنَ السِّلَالِ الَّتِي نَسَجْتُهَا فِي غَايَةِ الْبَشَاعَةِ، فَكَانَتْ كُلُّهَا غَيْرَ مُتَنَاسِقَةٍ وَكَانَ نَسْجُهَا غَيْرَ مُتَنَاسِبٍ، لَكِنَّنِي لَمْ أُبَالِ بِشَكْلِهَا، فَاسْتَخْدَمْتُهَا وَحَسْبُ عَلَى أَيِّ حَالٍ. وَأَحْرَزْتُ تَقَدُّمًا فَكَانَتْ كُلُّ سَلَّةٍ جَدِيدَةٍ أَفْضَلَ مِنْ سَابِقَتِهَا، وَاسْتَفَدْتُ مِنْهَا بِالتَّأْكِيدِ. فَاسْتَخْدَمْتُهَا لِحَمْلِ الْبُذُورِ، وَلِتَخْزِينِ بِضَاعَتِي، وَلِنَقْلِ الْمُؤَنِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ.

انْتَهَى الْمَوْسِمُ الْمُمْطِرُ، وَعَادَتِ الْأَيَّامُ الْمُشْمِسَةُ مِنْ جَدِيدٍ، وَبَدَأَتِ الْخَوَاطِرُ تَجُولُ فِي عَقْلِي، وَبَدَأْتُ أَنَا فِي اسْتِكْشَافِ الْمَزِيدِ فِي الْجَزِيرَةِ. وَفِي خِلَالِ أُسْبُوعٍ مِنَ الطَّقْسِ الْجَيِّدِ، انْطَلَقْتُ أَنَا وشيبي لِبَيْتِنَا الصَّيْفِيِّ.

كَانَتْ وِجْهَتِي هِيَ شَاطِئَ الْبَحْرِ الْوَاقِعَ عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْجَزِيرَةِ، فَوَقَفْتُ عَلَى أَعْلَى التَّلِّ وَنَظَرْتُ مُتَمَعِّنًا فِي الْأَرْجَاءِ لِأَكْتَشِفَ أَفْضَلَ الطُّرُقِ لِلذَّهَابِ حَيْثُ أُرِيدُ. فَهَذَا التَّلُّ كَانَ بِالْفِعْلِ أَعْلَى نِسْبِيًّا مِنْ أَيِّ أَرْضٍ قَرِيبَةٍ مِنْ أَيٍّ مِنْ مَنْزِلَيَّ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ، رَأَيْتُ هُنَاكَ أَرْضًا تَمْتَدُّ لِنَحْوِ عِشْرِينَ فَرْسَخًا فِي الْبَحْرِ.

فَرَاوَدَنِي التَّفْكِيرُ: «أَيْنَ أَنَا؟ وَمَا هَذِهِ الْأَرْضُ؟» بَحَثْتُ فِي عَقْلِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ قَدْ أَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ، لَكِنْ بِلَا جَدْوَى، فَلَمْ تَكُنْ لَدَيَّ أَيُّ فِكْرَةٍ عَنْهَا. وَأَقْرَبُ مَا اسْتَطَعْتُ التَّفْكِيرَ فِيهِ هُوَ وُجُودِي عَلَى جَزِيرَةٍ فِي الْجُزْءِ الْإِسْبَانِيِّ مِنَ الْأَمْرِيكَتَيْنِ. وَلَوْ كَانَ هَذَا صَحِيحًا، فَالْأَمْرُ خَطِيرٌ جِدًّا، فَالرِّجَالُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ عَلَى هَذِهِ الْأَرَاضِي غَيْرُ وَدُودِينَ جِدًّا. فَسَمِعْتُ

عَنْهُمُ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُرْعِبَةِ مِنْ بَحَّارَةٍ آخَرِينَ فِي رِحْلَاتِي؛ فَهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْغُرَبَاءَ بَتَاتًا وَيُحَاوِلُونَ إِبْعَادَ أَيِّ شَخْصٍ عَنْ جُزُرِهِمْ.

لَكِنِّي لَمْ أَدَعْ هَذِهِ الْأَفْكَارَ الْمُقْبِضَةَ تُخِيفُنِي، فَأَنَا لَمْ أَرَ قَطُّ إِنْسَانًا آخَرَ عَلَى جَزِيرَتِي؛ لِذَا كُنْتُ آمِنًا حِينَئِذٍ. وَانْطَلَقْتُ أَنَا وشيبي فِي مُغَامَرَتِنَا الصَّغِيرَةِ، وَرُبَّمَا كَانَ سَبَبُ اصْطِحَابِي لَهُ هُوَ الِاسْتِمَاعَ وَحَسْبُ إِلَى وَقْعِ صَوْتِي، فَتَحَدَّثْتُ وَتَحَدَّثْتُ إِلَى الْكَلْبِ، وَأَخْبَرْتُهُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ حَيَاتِي، وَعَنْ خُطَطِي، وَعَنْ مَكَانِي قَبْلَ أَنْ أَهْبِطَ عَلَى الْجَزِيرَةِ مَعَهُ. وَكَانَ يَخِبُّ بِجِوَارِي، سَعِيدًا أَيَّمَا سَعَادَةٍ.

كَانَ الْجَانِبُ الْآخَرُ مِنَ الْجَزِيرَةِ جَمِيلًا جِدًّا، فَهُنَاكَ بَبَّغَاوَاتٌ عَلَى الْأَشْجَارِ وَالْعَدِيدُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُثِيرَةِ. فَقَرَّرْتُ أَخْذَ بَبَّغَاءٍ لِلْمَنْزِلِ كَطَيْرٍ أَلِيفٍ، وَأَسْمَيْتُهُ بُولْ.

قَضَيْتُ الْعَدِيدَ مِنَ اللَّيَالِي بَعِيدًا عَنِ الْمَنْزِلِ فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ. وَكَانَ وَقْتًا بَهِيجًا وَمُمْتِعًا، بِاسْتِثْنَاءِ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي قَضَيْتُهَا أَنَا وَشيبي تَائِهَيْنِ فِي وَادٍ شَاسِعٍ. فَكَمْ يَكُونُ الْبَيْتُ رَائِعًا عِنْدَمَا تَكُونُ بَعِيدًا! مَتَّعْتُ نَظَرِي بِكُلِّ شَيْءٍ! وَحَتَّى سِلَالِي غَرِيبَةُ الشَّكْلِ كَانَتْ تَرْسُمُ الْبَسْمَةَ عَلَى وَجْهِي.

قُلْتُ وَأَنا أَسْقُطُ لَاجِئًا إِلَى رَاحَةِ أُرْجُوحَتِي الشَّبَكِيَّةِ: «آهٍ يَا شيبي، مَنْزِلِي الْعَزِيزَ.»

وَكَانَتْ هَذِهِ لَحْظَةً هَامَّةً، فَبَيْنَمَا كُنْتُ رَاقِدًا، أَرْتَشِفُ الْمِيَاهَ بِالْفَاكِهَةِ، وَأَتَأَرْجَحُ جِيئَةً وَذَهَابًا عَلَى أُرْجُوحَتِي، تَوَقَّفْتُ عَنِ الشُّعُورِ بِالْأَسَى عَلَى نَفْسِي. أَجَلْ، كُنْتُ عَالِقًا عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ. وَأَجَلْ، كُنْتُ وَحِيدًا تَمَامًا. وَهَذَا حَقِيقِيٌّ، فَيَا لَهَا مِنْ حَيَاةٍ شَاقَّةٍ، لَكِنَّهَا كَذَلِكَ حَيَاةٌ شَائِقَةٌ، فَكُنْتُ مُمْتَنًّا أَنَّنِي عَلَى قِيدِ الْحَيَاةِ وَأَنَّنِي نَجَوْتُ مِن تَحَطُّمِ السَّفِينَةِ.

الفصل الثامن عشر

وَتَسْتَمِرُّ الْحَيَاةُ

فِي سَنَتِي الثَّالِثَةِ عَلَى الْجَزِيرَةِ، بَدَأَتْ حَيَاتِي الْيَوْمِيَّةُ تَأْخُذُ شَكْلًا مُحَدَّدًا؛ فَكُنْتُ مُنْشَغِلًا بِالصَّيْدِ وَالطَّهْيِ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ، تَمَامًا مِثْلَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ كُلَّ صَبَاحٍ طَوَالَ السَّنَتَيْنِ الْمَاضِيَتَيْنِ. وَكُنْتُ أَقْضِي فَتَرَاتِ بَعْدِ الظَّهِيرَةِ فِي الْعَمَلِ عَلَى مَشَارِيعِ، كبِنَاءِ الْأَرْفُفِ وَتَحْسِينِ مَنْزِلَيَّ كِلَيْهِمَا.

كُنْتُ أَتَّجِهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِلَى وَادِيَّ وَأَتَفَقَّدُ مَحَاصِيلِي، وَكَانَتْ بِخَيْرِ حَالٍ، بِالرَّغْمِ مِنِ الْتِفَاتِ الطُّيُورِ وَالْأَرَانِبِ الْبَرِّيَّةِ مِنْ حَوْلِهَا إِلَيْهَا! وَلِكَيْ أَحُلَّ مُشْكِلَةَ الطُّيُورِ قُمْتُ بِتَعْلِيقِ رِيشٍ فِي كَافَّةِ الْأَرْجَاءِ لِإِخَافَتِهَا، وَلِحَلِّ مُشْكِلَةِ الْأَرَانِبِ بَنَيْتُ سِيَاجًا حَوْلَ مَحَاصِيلِي كَيْ لَا تَتَمَكَّنَ الْأَرَانِبُ الْبَرِّيَّةُ مِنَ الدُّخُولِ. وَنَجَحَ كِلَا الْحَلَّيْنِ، وَسَرِيعًا أَصْبَحَتِ الْمَحَاصِيلُ فِي مَأْمَنٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْبَرِّيَّةِ فِي الْمِنْطَقَةِ.

كَانَ الْحَصَادُ هَذَا الْعَامَ هزِيلًا؛ لِذَا قَرَّرْتُ إِعَادَةَ إِنْبَاتِ الْحُبُوبِ الَّتِي زَرَعْتُهَا مِنْ قَبْلُ. وَكَانَ مِنْ دَوَاعِي شُعُورِي بِالسُّرُورِ فِي حَيَاتِي الْقَدِيمَةِ وَالَّذِي اشْتَهَيْتُ بِشِدَّةٍ الْحُصُولَ عَلَيْهِ هُوَ الْخُبْزُ، وَلَكِنْ كَانَ عَلَيَّ التَّأَكُّدُ مِنْ تَوَافُرِ الشَّعِيرِ وَالْأُرْزِ بِمَا يَكْفِي لِتَحْوِيلِ هَذَا الْحُلْمِ لِحَقِيقَةٍ.

وَعِنْدَمَا بَدَأَتِ الْأَمْطَارُ فِي الْهُطُولِ، كَالْمُعْتَادِ، مَكَثْتُ فِي الدَّاخِلِ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ، وَقَضَيْتُ بِضْعَةَ أَسَابِيعَ جَمِيلَةً فِي مُحَاوَلَةِ تَعْلِيمِ بول الْبَبَّغَاءِ التَّحَدُّثَ، وَتَعَلَّمَ فِي النِّهَايَةِ قَوْلَ كَلِمَاتٍ وَجُمَلٍ قَلِيلَةٍ.

وَكَذَلِكَ كَانَ هَذَا الْمَوْسِمُ بِدَايَةَ صُنْعِي الْفَخَّارَ، فَهُنَاكَ كَمِّيَّةٌ وَافِرَةٌ مِنَ الصَّلْصَالِ الطَّبِيعِيِّ عَلَى الْجَزِيرَةِ. عَمِلْتُ عِدَّةَ مُحَاوَلَاتٍ لِإِحْمَاءِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي شَكَّلْتُهَا فِي النَّارِ، وَلَكِنَّهَا فِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَتْ تَخْرُجُ مَكْسُورَةً.

وَتَسَاءَلْتُ: «مَا الْخَطَأُ الَّذِي أَفْعَلُهُ؟»

جَرَّبْتُهَا عَلَى أَنْوَاعِ حَرَارَةٍ مُخْتَلِفَةٍ. وَسَرِيعًا، عَرَفْتُ أَنَّهَا لا تَنْكَسِرُ عِنْدَ وَضْعِهَا عَلَى الْجَمْرِ، بَدَلًا مِنْ وَضْعِهَا مُبَاشَرَةً عَلَى النَّارِ. وَمِثْلَ سِلَالِي، كَانَتْ السُّلْطَانِيَّاتُ بَعِيدَةً تَمَامًا عَنِ الْإِتْقَانِ. صَنَعْتُ الْعَدِيدَ مِنَ الْقُدُورِ لِلطَّبْخِ وَبَدَأْتُ أَسْتَمْتِعُ بِتَنَوُّعٍ وَجَبَاتِ الْعَشَاءِ، مِثْلِ الْيَخْنَةِ وَالْمَرَقِ! وَيَا لَهُ مِنْ تَغْيِيرٍ فِي وَجَبَاتِي الْمُعْتَادَةِ بَعْدَ أَنْ كُنْتُ أَتَنَاوَلُ اللَّحْمَ الْمَشْوِيَّ عَلَى النَّارِ.

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، حَقَّقَ حَصَادِي الثَّانِي أَيْضًا النَّجَاحَ، وَأَصْبَحَ لَدَيَّ وَقْتَئِذٍ مَا يَكْفِي مِنَ الْبُذُورِ فِي الْمَخْزَنِ، فَشَعَرْتُ بِالاطْمِئْنَانِ لِمُحَاوَلَةِ صُنْعِ الْخُبْزِ. وَكَانَ الْبَسْكَوِيتُ الَّذِي أَحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ قَدْ نَفِدَ مُنْذُ زَمَنٍ، وَاشْتَهَيْتُ شَيْئًا مِثْلَهُ. فَأَوَّلًا، نَحَتُّ سُلْطَانِيَّةً كَبِيرَةً مِنَ قِطْعَةِ الْخَشَبِ الْحَدِيدِيِّ الَّتِي قَطَّعْتُهَا مُنْذُ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ. وَثَانِيًا، وَضَعْتُ بَعْضًا مِنْ حِنْطَتِي فِي السُّلْطَانِيَّةِ وَحَاوَلْتُ طَحْنَهَا لِتُصْبِحَ طَحِينًا. وَبَعْدَ هَذَا، غَرْبَلْتُ الطَّحِينَ بِاسْتِخْدَامِ مَلَابِسَ قَدِيمَةٍ، عَلَى أَمَلِ فَصْلِ الْقِشْرَةِ مِنْهَا.

وَحِينَئِذٍ أَضْحَى لَدَيَّ الدَّقِيقُ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ مَعِي خَمِيرَةٌ لِنَفْشِ الْعَجِينِ وَانْتِفَاخِهِ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ أَيُّ زُبْدٍ لِإِضَافَةِ نَكْهَةٍ أَوْ شَحْمٍ لِأَخْبِزَ بِهِ. لِذَا، بِبَسَاطَةٍ خَلَطْتُ الدَّقِيقَ بِالْمَاءِ وَتَمَنَّيْتُ الْحُصُولَ عَلَى أَفْضَلِ نَتِيجَةٍ. وَكَانَتِ الْأَرْغِفَةُ الَّتِي صَنَعْتُهَا أَفْضَلَ قَلِيلًا مِنَ الْخُبْزِ المسطح، لَكِنَّهُ كَانَ لَذِيذًا.

وَاسْتَمَرَّ نَجَاحُ الْمَحَاصِيلِ. وَلَمْ أُرِدْ إِتْلَافَ أَيٍّ مِنَ الْبُذُورِ؛ لِذَا بَدَأْتُ بِالزِّرَاعَةِ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ فِي الْعَامِ. وَكُنْتُ أَعْرِفُ كَمَّ الْبُذُورِ الَّتِي أَحْتَاجُهَا، وَكَمَّ الدَّقِيقِ الَّذِي يُمْكِنُنِي عَمَلُهُ وَاسْتِخْدَامُهُ بِالْفِعْلِ؛ فَلَمْ أَرْغَبْ فِي إِهْدَارِ أَيِّ شَيْءٍ.

الفصل التاسع عشر

قَارِبٌ

فِي شَهْرِ سِبْتَمْبرَ الَّذِي بَدَأَتْ بِهِ سَنَتِي الرَّابِعَةَ عَلَى الْجَزِيرَةِ، فَكَّرْتُ مَلِيًّا وَجِدِّيًا فِي الانْتِقَالِ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْجَزِيرَةِ. فَلَمْ أَشُكَّ كَثِيرًا فِي أَنَّهُ كَانَ أَجْمَلَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي قَرَّرْتُ الِاسْتِقْرَارَ فِيهِ، وَدَفَعَتْنِي إِلَى ذَلِكَ احْتِمَالِيَّةُ رُؤْيَتِي لِلْأَرْضِ مِنْ هُنَاكَ. وَجَعَلَنِي ذَلِكَ أَوَدُّ الْهُرُوبَ. وَتَذَكَّرْتُ قَصُورِي الْيَافِعَ وَمَرْكَبَنَا وَتَمَنَّيْتُ لَوْ كَانَ بِحَوْزَتِي ذَاتُ الْقَارِبِ عَلَى الْجَزِيرَةِ. فَكَمْ كُنْتُ سَأَقْطَعُ مِنْ مَسَافَةٍ!

وَبِالرُّغْمِ مِنْ هَذَا الْحَنِينِ لِلْعَوْدَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ، كُنْتُ خَائِفًا أَيْضًا مِنْ مُغَادَرَةِ الْجَزِيرَةِ. فَمَاذَا لَوِ انْتَهَى بِي الْمَطَافُ فِي مَكَانٍ أَسْوَأَ؟ وَكَذَلِكَ، مَضَى عَلَى وُجُودِي عَلَى الْجَزِيرَةِ فَتْرَةٌ طَوِيلَةٌ وَلَمْ أَرَ خِلَالَهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ إِنْسَانًا آخَرَ. وَبِالْمِثْلِ لَمْ أَرَ أَيَّ شَيْءٍ.

فَقُلْتُ لِنَفْسِي: «أَنْتَ تَعْرِفُ بِالتَّجْرِبَةِ يَا روبنسون أَنَّ الْأَسْوَأَ يَحْدُثُ فِيمَا يَبْدُو دَائِمًا عِنْدَمَا تُغَامِرُ بَعِيدًا عَنْ مَوْطِنِكَ.» لَا، لَنْ أَنْقُلَ مُخَيَّمِي؛ فَهُوَ آمِنٌ وَمُرِيحٌ، وَيَجِبُ عَلَيَّ الْبَقَاءُ فِي مَكَانِي فِي الْوَقْتِ الْحَالِي.

وَهَذَا لَمْ يَكُنْ يَعْنِي أَنَّنِي تَوَقَّفْتُ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي مُغَادَرَةِ الْجَزِيرَةِ، فَأَرَدْتُ بِشِدَّةٍ الْحُصُولَ عَلَى قَارِبٍ. وَفِي حِينِ لَا زَالَتْ أَجْزَاءُ سَفِينَتِنَا مُخَبَّأَةً فِي الْأَسْفَلِ بِجِوَارِ الشَّاطِئِ، فَرُبَّمَا يَكُونُ هُنَاكَ سَبِيلٌ لِإِصْلَاحِهَا فِي النِّهَايَةِ.

حَسَنًا، كَانَتْ هَذِهِ الْفِكْرَةُ حَمْقَاءَ. فَبَعْدَ أَسَابِيعَ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ، أُجْبِرْتُ عَلَى الْوُصُولِ لِذَاتِ النَّتِيجَةِ؛ فَلَا يُمْكِنُ إِصْلَاحُ هَذَا الْقَارِبِ!

إِلَّا أَنَّنِي ظَلَلْتُ بِحَاجَةٍ لِأَنْ أَمْتَلِكَ قَارِبًا. فَحَسَمْتُ أَمْرِي، وَقُلْتُ بِصَوْتٍ عَالٍ: «عَلَيَّ فَقَطْ أَنْ أَصْنَعَ قَارِبًا!»

وَمَرَّةً أُخْرَى، يَا لَهَا مِنْ خُطَّةٍ حَمْقَاءَ! فَلَمْ أُفَكِّرْ بِتَمَعُّنٍ فِيهَا قَبْلَ أَنْ أَبْدَأَ. قَضَيْتُ أَسَابِيعَ فِي الْغَابَةِ لِأَقْطَعَ الشَّجَرَةَ الْمُنَاسِبَةَ، وَبِمُجَرَّدِ سُقُوطِهَا، قَضَيْتُ مَا يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي تَشْكِيلِ الْقَاعِ وَالْحَفْرِ مِنَ الدَّاخِلِ. وَعِنْدَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، أَضْحَى لَدَيَّ زَوْرَقٌ مُتَوَسِّطُ الْحَجْمِ. وَبَقِيَتْ مُشْكِلَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ: كَيْفَ يُمْكِنُنِي إِنْزَالُ الْقَارِبِ إِلَى الْمَاءِ؟ فَوَقْتَئِذٍ كَانَ الزَّوْرَقُ مُسْتَقِرًّا فِي مُنْتَصَفِ الْغَابَةِ!

دَفَعْتُهُ، وَجَذَبْتُهُ، وَجَرَرْتُهُ، وَرَكَلْتُهُ، وَصَرَخْتُ، وَبِبَسَاطَةٍ لَمْ يَتَزَحْزَحِ الْقَارِبُ. وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سَبِيلٌ لِأَتَمَكَّنَ مِنْ سَحْبِهِ طَوَالَ الطَّرِيقِ عَبْرَ الْغَابَةِ وَالْوَادِي، ثُمَّ إِلَى الشَّاطِئِ. فَبِمَاذَا كُنْتُ أُفَكِّرُ بِحَقِّ السَّمَاءِ؟

وَانْتَهَى صِرَاعِي مَعَ الزَّوْرَقِ بِلَا شَيْءٍ سِوَى الْإِحْبَاطِ، فَهَذَا الْقَارِبُ عَالِقٌ عَلَى الْيَابِسَةِ إِلَى الْأَبَدِ. وَقُلْتُ لشيبي: «كَمْ هُوَ أَمْرٌ مُضْحِكٌ، فَعَلَى الشَّاطِئِ، لَدَيَّ أَجْزَاءٌ مِنْ سَفِينَةٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَطْفُوَ عَلَى صَفْحَةِ الْمَاءِ. وَفِي الْغَابَةِ، لَدَيَّ زَوْرَقٌ يُمْكِنُ أَنْ يَطْفُوَ، لَكِنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ إِنْزَالَهُ إِلَى الْمَاءِ!»

وَهَكَذَا، احْتَفَلْتُ بِالذِّكْرَى السَّنَوِيَّةِ الرَّابِعَةِ عَلَى الْجَزِيرَةِ بِقَارِبَيْنِ، لَكِنَّ أَيًّا مِنْهُمَا لَمْ يُسَاعِدْنِي عَلَى الْهُرُوبِ مِنْ جَزِيرَتِي!

وَبِالرُّغْمِ مِنَ الْحَظِّ الْعَاثِرِ مَعَ الْقَارِبَيْنِ، فَكَانَ هُنَاكَ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَكْفِينِي وَمِنَ الْمَاءِ مَا يَرْوِينِي. وَكَانَ مَنْزِلِي آمِنًا وَجَافًّا (مُعْظَمَ الْوَقْتِ!) وَكَانَ هُنَاكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا افْتَقَدْتُهُ، مِثْلَ الْجَزَرِ وَالْبَازِلَّاءِ، لَكِنَّنِي كُنْتُ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ وَهَذَا هُوَ كُلُّ مَا يَهُمُّ حَقِيقَةً. فَبِالْإِجْمَالِ، كَانَتِ السَّنَةُ الرَّابِعَةُ جَيِّدَةً.

بَدَأَ الْمَوْسِمُ الْمُمْطِرُ، وَحَانَ الْوَقْتُ كَيْ أَقِيسَ وَأُعَدِّلَ مَلَابِسِي. فَكُنْتُ قَدِ انْتَشَلْتُ الْكَثِيرَ مِنْ مَلَابِسِ الْبَحَّارَةِ قَدْرَ مَا أَمْكَنَنِي مِنَ السَّفِينَةِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ مَضَتْ. وَكَانَتْ أَهَمُّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أَخَذْتُهَا هِيَ الْقُمْصَانَ. فَإِجْمَالًا، كَانَ مَعِي قُرَابَةُ عِشْرِينَ قَمِيصًا، وَكَانَتِ الْقُمْصَانُ مَصْنُوعَةً مِنَ الْكَتَّانِ، فَكَانَتْ خَفِيفَةً وَمُرِيحَةً لِلْغَايَةِ، لَكِنَّهَا كَانَتْ فِي طَرِيقِهَا لِلْبِلَى، وَتَحَوَّلَ الْكَثِيرُ مِنْهَا وَقْتَئِذٍ لِخِرَقٍ بَالِيَةٍ. فَحَاوَلْتُ أَنْ أَرْتَدِيَهَا كُلًّا عَلَى حِدَةٍ، كَيْ تَدُومَ لِأَطْوَلِ فَتْرَةٍ مُمْكِنَةٍ.

وَكُنْتُ قَدِ انْتَشَلْتُ كَذَلِكَ الْعَدِيدَ مِنَ الْمَعَاطِفِ مِنَ السَّفِينَةِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ مَضَتْ، وَلَكِنَّ الطَّقْسَ عَلَى الْجَزِيرَةِ كَانَ حَارًّا لِدَرَجَةٍ تَمْنَعُنِي مِنِ ارْتِدَائِهَا. فَبَدَلًا مِنِ ارْتِدَائِهَا، حَوَّلْتُهَا

إِلَى بَنَاطِيلَ وَسَرَاوِيلَ قَصِيرَةٍ. وَلَوْ كَانَتْ سِلَالِي غَيْرَ بَارِعَةٍ، فَإِنَّ خِيَاطَتِي كَانَتْ أَسْوَأَ بِكَثِيرٍ! وَبِحُلُولِ الْوَقْتِ الَّذِي انْتَهَيْتُ فِيهِ مِنْ صُنْعِ مَلَابِسِي، بَدَوْتُ مُثِيرًا لِلسُّخْرِيَةِ! فَقُمْصَانِي بَالِيَةٌ، وَسَرَاوِيلِي أَرْتَدِيهَا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فِيمَا سَبَقَ مَعَاطِفَ! وَسَرِيعًا قَرَّرْتُ صُنْعَ مَلَابِسِي مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ تَبَعًا لِلْمُوضَةِ، بَلْ بَحْثًا عَنِ الرَّاحَةِ. وَإِضَافَةً إِلَى مَلَابِسِي مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ، صَنَعْتُ أَيْضًا قُبَّعَةً، فَلَوْنُ بَشْرَتِي فَاتِحٌ جِدًّا، وَكُنْتُ أَتَعَرَّضُ بِسُهُولَةٍ لِلِاحْتِرَاقِ إِذَا مَكَثْتُ فِي الْخَارِجِ لِفَتْرَةٍ أَكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ، وَكَانَتِ الْقُبَّعَةُ فَعَّالَةً فِي وِقَايَتِي مِنَ الشَّمْسِ.

وَبَيْنَمَا كُنْتُ أُعَدِّلُ مَلَابِسِي، صَنَعْتُ كَذَلِكَ مِظَلَّةً، وَأَصْبَحَتْ أَغْلَى مُقْتَنَيَاتِي؛ فَلَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى حَجْبِهَا لِلشَّمْسِ عَنِّي وَحَسْبُ، لَكِنَّهَا أَيْضًا أَبْقَتْنِي جَافًّا أَثْنَاءَ الْمَوْسِمِ الْمُمْطِرِ.

الفصل العشرون

حَادِثَةٌ أُخْرَى

عَلَى مَدَى الْخَمْسِ سَنَوَاتٍ التَّالِيَةِ، حَقَّقْتُ نَجَاحَاتٍ عَلَى جَزِيرَتِي الصَّغِيرَةِ؛ فَكَانَ حَصَادِي نَاجِحًا، وَاسْتَكْشَفْتُ الْجَزِيرَةَ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَكَانَ شيبي وَبول أَلِيفَيْنِ رَائِعَيْنِ، وَكَانَ لَدَيَّ الْكَثِيرُ مِنَ الطَّعَامِ مِنْ أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ، وَكَانَ الصَّيْدُ دَائِمًا حَسَنًا.

وَوَقْتَئِذٍ، ارْتَكَبْتُ مَا يُمْكِنُ عَدُّهُ حَمَاقَةً؛ صَنَعْتُ قَارِبًا آخَرَ أَثْنَاءَ هَذِهِ الْفَتْرَةِ، وَتَعَلَّمْتُ أَيْضًا مِنْ أَخْطَائِي. فَبَدَلًا مِن اخْتِيَارِ شَجَرَةٍ مِنْ مُنْتَصَفِ الْغَابَةِ، عَثَرْتُ عَلَى أُخْرَى عَلَى مَسَافَةٍ أَقْرَبَ إِلَى الشَّاطِئِ. وَاسْتَغْرَقَ الْأَمْرُ مِنِّي شُهُورًا عَدِيدَةً لِأَنْحِتَ الزَّوْرَقَ كَمَا يَنْبَغِي. وَعِنْدَمَا انْتَهَيْتُ، أَنْزَلْتُهُ إِلَى الْمَاءِ بِوَضْعِ أَزْنَادِ الْأَشْجَارِ تَحْتَهُ وَدَحْرَجْتُهُ إِلَى الْأَمَامِ. وَمَا إِنْ عَرَفْتُ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ أَنَّهُ سَيَطْفُو، صَنَعْتُ صَارِيًا صَغِيرًا وَشِرَاعًا. وَالْآنَ، بَدَلًا مِنَ الْمَشْيِ لِأَمْيَالٍ وَأَمْيَالٍ حَتَّى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْجَزِيرَةِ، كَانَ يُمْكِنُنِي السَّفَرُ بِالْقَارِبِ!

وَلِأَنَّ قَلْبِي ظَلَّ يَتُوقُ لِلْمُغَامَرَةِ، بَدَأْتُ رِحْلَةً وَبِصُحْبَتِي الْمُؤَنُ الْكَافِيَةُ لِيَوْمَيْنِ؛ فَأَخَذْتُ بَعْضَ الطَّعَامِ، وَارْتَدَيْتُ قُبَّعَتِي، وَحَمَلْتُ مِظَلَّتِي. وَأَبْحَرَ الْقَارِبُ الصَّغِيرُ بِسَلَاسَةٍ حَتَّى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ الْجَزِيرَةِ. وَاسْتَخْدَمْتُ الْمَرْسَى الصَّغِيرَ الَّذِي احْتَفَظْتُ بِهِ مِنَ السَّفِينَةِ الْكَبِيرَةِ وَذَهَبْتُ إِلَى الشَّاطِئِ لِلِاسْتِكْشَافِ. وَخَيَّمْتُ فِي الْخَارِجِ لِيَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ. وَمَا إِنِ اسْتَكْشَفْتُ طَبِيعَةَ الْمَكَانِ، أَخَذْتُ طَرِيقَ الْعَوْدَةِ إِلَى قَارِبِي، وَذَهَبْتُ عَنِ الْمَكَانِ لِأُبْحِرَ عَائِدًا لِلْمَنْزِلِ.

وَبَدَلًا مِنْ عَوْدَتِي مِنْ نَفْسِ طَرِيقِ قُدُومِي، قَرَّرْتُ الذَّهَابَ مِنَ الْجِهَةِ الْأُخْرَى. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ مِنِ انْطِلَاقِي، تَلَاقَتِ التَّيَّارَاتُ مِنِ اتِّجَاهَاتٍ عِدَّةٍ، وَبَدَأَتِ الْمِيَاهُ تَجْرِفُنِي إِلَى

دَاخِلِ الْبَحْرِ، وَلَمْ يَبْدُ لِتَجْدِيفِي أَيُّ أَثَرٍ. هَبَّتِ الرِّيَاحُ بِشِدَّةٍ، بَلْ وَجَرَفَتْنِي إِلَى مَكَانٍ أَبْعَدَ، وَاخْتَفَتْ جَزِيرَتِي الصَّغِيرَةُ مِنْ عَلَى بُعْدٍ.

صَرَخْتُ: «أَوَّاهُ! لِمَاذَا أَنَا؟ لِمَاذَا ثَانِيَةً! مَاذَا أَفْعَلُ؟ أَيْنَ سَأَذْهَبُ؟» لَاحَظَ شيبي فَزَعِي، فَنَبَحَ وَنَبَحَ. وَكُلُّ مَا أَرَدْتُهُ حِينَهَا هُوَ الْعَوْدَةُ لِلْبَيْتِ. فَكَانَ مُخَيَّمِي جَنَّةً مُقَارَنَةً بِتَحَطُّمِ قَارِبِي أَوْ شُعُورِي بِالضَّيَاعِ فِي الْبَحْرِ. فَأَنْزَلْتُ الصَّارِيَ وَالشِّرَاعَ لِأَرَى إِنْ كَانَ سَيُؤَثِّرُ، وَلَكِنَّ الْقَارِبَ كَانَ قَدْ عَلِقَ فِي التَّيَّارِ.

كَانَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَسَعُنِي عَمَلُهُ هُوَ الِانْتِظَارَ. فَتَوَقَّفْتُ عَنِ الْمُحَاوَلَةِ وَتَرَقَّبْتُ وَالشَّمْسُ تُلْقِي بِأَشِعَّتِهَا عَبْرَ جَزِيرَتِي. وَبَعْدَ الظَّهِيرَةِ، تَغَيَّرَتِ الرِّيَاحُ، وَبَدَأَتْ تَهُبُّ شَمَالًا، مِمَّا بَعَثَ فِيَّ شَيْئًا مِنَ الْأَمَلِ. فَأَعَدْتُ الصَّارِيَ وَالشِّرَاعَ بِسُرْعَةٍ إِلَى مَكَانِهِمَا لِأَعْلَى، وَلَا شَيْءَ سِوَى الْعَمَلِ الْمُضْنِي جَعَلَ الْقَارِبَ يَجْتَازُ التَّيَّارَ. فَلَمْ أُبْحِرْ قَطُّ بِهَذِهِ الصُّعُوبَةِ فِي حَيَاتِي. تَأَرْجَحَ الْقَارِبُ قَلِيلًا، لِلْخَلْفِ وَلِلْأَمَامِ، وَلِلْأَمَامِ وَلِلْخَلْفِ، ثُمَّ قَرَّرْتُ الْبَدْءَ فِي التَّجْدِيفِ. وَبَعْدَ مَا يَقْرُبُ مِنْ سَاعَةٍ، عَادَ الْقَارِبُ أَخِيرًا إِلَى مَسَارِهِ وَتَوَجَّهْتُ بِهِ عَائِدًا بِاتِّجَاهِ الْجَزِيرَةِ.

عِنْدَ عَوْدَتِي إِلَى جَانِبِ الْجَزِيرَةِ الَّذِي اعْتَدْتُهُ، كَانَتِ الشَّمْسُ تَمِيلُ لِلْغُرُوبِ. وَأَرَدْتُ الْعَوْدَةَ إِلَى الشَّاطِئِ قَبْلَ حُلُولِ الظَّلَامِ بِالْكَامِلِ. وَبَدَلًا مِنْ مُحَاوَلَتِي الْعَوْدَةَ إِلَى النَّهْرِ (حَيْثُ اسْتَخْدَمْتُ الطَّوْفَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَعَلَيْهِ مُؤَنِي مِنَ السَّفِينَةِ)، قَرَّرْتُ التَّوَقُّفَ عِنْدَ خَلِيجٍ صَغِيرٍ قَبْلَ حُلُولِ الظَّلَامِ مُبَاشَرَةً. ولحسن الحظ أَنَّ الْمِيَاهَ كَانَتْ هَادِئَةً، وَجَدَّفْتُ بِقَارِبِي إِلَى الشَّاطِئِ.

وَحِينَئِذٍ، كَانَ الظَّلَامُ دَامِسًا، فَرَبَطْتُ الْقَارِبَ وَقَرَّرْتُ الْمَبِيتَ لِقَضَاءِ اللَّيْلِ، وَصَعِدْتُ إِلَى شَجَرَةٍ وَحَاوَلْتُ النَّوْمَ.

وَبَيْنَمَا كُنْتُ أُحَاوِلُ الْوُصُولَ إِلَى وَضْعِيَّةٍ مُرِيحَةٍ، غَمْغَمْتُ لِنَفْسِي مُتَذَمِّرًا: «أَفْتَقِدُ أُرْجُوحَتِي الشَّبَكِيَّةَ.»

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، جَدَّفْتُ بِالْقَارِبِ بِحَذَرٍ شَدِيدٍ حَتَّى مَمَرٍّ مَائِيٍّ صَغِيرٍ قَرِيبٍ مِنْ مُخَيَّمِي. وَكُنْتُ فِي شِدَّةِ الْإِجْهَادِ حِينَ وَصَلْتُ لِلْبَيْتِ. آهٍ يَا جُدْرَانِيَ الْعَزِيزَةَ! آهٍ يَا سِيَاجِيَ الرَّائِعَ! لَمْ أَقُمْ حَتَّى بِنَزْعِ قُبَّعَتِي بَعْدَمَا دَخَلْتُ؛ قَفَزْتُ وَحَسْبُ مُبَاشَرَةً عَلَى

أُرْجُوحَتِي الشَّبَكِيَّةِ وَغَرِقْتُ فِي النَّوْمِ. كَانَ ذِرَاعَايَ وَسَاقَايَ تئن مِنَ الْأَلَمِ، أَمَّا عَقْلِي فَكَانَ فِي غَايَةِ الْإِرْهَاقِ.

سَمِعْتُ صَوْتًا غَرِيبًا يُنَادِينِي فِي مَنَامِي: «روبنسون كروزو! روبنسون كروزو! أَيْنَ كُنْتَ؟ وَكَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هُنَا؟» فَتَعَجَّبْتُ: هَلْ نَجَوْتُ؟ هَلْ أَخِيرًا أَتَى أَحَدُهُمْ لِأَخْذِي؟ فَتَحْتُ عَيْنًا وَاحِدَةً وَرَأَيْتُ بول جَاثِمًا فَوْقَ صَدْرِي. لَقَدْ كَانَ الْبَبَّغَاءَ!

قُلْتُ وَأَنَا أَتَقَلَّبُ وَأَعُودُ لِلنَّوْمِ: «آهٍ يَا بول، مِنَ الرَّائِعِ أَنْ أَكُونَ فِي الْبَيْتِ.»

لَازَمَنِي إِحْسَاسُ الضَّيَاعِ فِي الْبَحْرِ عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ. فَكُنْتُ فِي غَايَةِ الرُّعْبِ، فَكَانَ يُمْكِنُ أَنْ أَفْقِدَ كُلَّ شَيْءٍ. فَدَارَ فِي ذِهْنِي: «لَا، لَنْ أُبْحِرَ ثَانِيَةً. فَالْأَمْرُ لَا يَسْتَحِقُّ الْمُخَاطَرَةَ.»

الفصل الحادي والعشرون

العَقْدُ الْأَوَّلُ

عَشْرُ سِنِينَ مَرَّتْ، وَكَانَ الْبَارُودُ فِي طَرِيقِهِ لِلنَّفَادِ، وَكُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْعُثُورِ عَلَى وَسِيلَةٍ لِتَوْفِيرِ الطَّعَامِ لَا تَشْمَلُ الصَّيْدَ. فَلَو اسْتَطَعْتُ الْإِمْسَاكَ بِعَدَدٍ قَلِيلٍ مِنْ صِغَارِ الْمَاعِزِ، فَيُمْكِنُنِي تَرْوِيضُهَا، وَلَو اسْتَطَعْتُ تَرْوِيضَهَا، سَيَكُونُ لَدَيَّ طَعَامٌ دَوْمًا؛ إِذْ سَيَكْبُرُونَ سَرِيعًا حَتَّى يُصْبِحُوا قَطِيعًا كَامِلًا مِنَ الْمَاعِزِ.

اسْتَغْرَقَ الْأَمْرُ مِنِّي بَعْضَ الْمُحَاوَلَاتِ قَبْلَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِالْمَاعِزِ؛ فَإِذَا أَكَلَ الْمَاعِزُ الذُّرَةَ الَّتِي بَدَأْتُ بِزَرْعِهَا، لا تَقَعْ فِي الْفَخِّ! وَعِنْدَمَا يَعْمَلُ الْفَخُّ، لَا يَكُونُ الْمَاعِزُ بِالْجِوَارِ!

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنَ الْمُحَاوَلَةِ، عُدْتُ إِلَى الْحُفْرَةِ ذَاتَ صَبَاحٍ لِأَجِدَ الْمَاعِزَ يَمْضُغُونَ بِسَعَادَةٍ الْأَكْلَ الَّذِي تَرَكْتُهُ، فَاقْتَدْتُ الْمَاعِزَ إِلَى الْمَرْجِ الْقَرِيبِ مِنْ بَيْتِي الصَّيْفِيِّ. وَكَانَ هُنَاكَ بِالْفِعْلِ سِيَاجٌ جَمِيلٌ مِنَ الشُّجَيْرَاتِ يُحِيطُ بِالْمِنْطَقَةِ، وَكُنْتُ قَدْ أَقَمْتُهُ كَيْ لَا تَهْرُبَ الْمَاعِزُ بِمُجَرَّدِ إِدْخَالِها إِلَى الْكَلَأ. وَلَمْ يُحِبَّ صِغَارُ الْمَاعِزِ الثَّلَاثَةُ التَّقْيِيدَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنْ سَبِيلٍ آخَرَ حَتَّى أَتَأَكَّدَ مِنْ بَقَائِهَا. وَكُنْتُ أُطْعِمُهُمُ الذُّرَةَ وَالْأُرْزَ، وَقَدْ أَحَبَّتْهُمَا كَثِيرًا حَتَّى إِنَّهَا غَالِبًا مَا كَانَتْ تَأْكُلُهَا مِنْ يَدِي مُبَاشَرَةً.

بَقِينَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ لِفَتْرَةٍ، يَأْكُلُونَ مَا أُقَدِّمُهُ لَهُمْ، فِي حِينِ ظَلُّوا مُقَيَّدِينَ. وَعِنْدَمَا تَيَقَّنْتُ مِنْ عَدَمِ تَحَوُّلِهِمْ إِلَى مَاعِزٍ بَرِّيٍّ، تَرَكْتُهُمْ يَتَحَرَّكُونَ بِحُرِّيَّةٍ فِي الْمَرْجِ. وَكَبِرَ الْقَطِيعُ بِاطِّرَادٍ عَلَى مَدَى السِّنِينَ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ، فَأَصْبَحَ لَدَيَّ الْآنَ حَصَادٌ وَأَشْجَارُ فَاكِهَةٍ وَمَاعِزٌ.

وَكُنْتُ فَخُورًا جِدًّا بِمَزْرَعَتِي الْمُتَنَامِيَةِ؛ فَكَانَتِ الذُّرَةُ تَنْمُو نُمُوًّا صِحِّيًّا، وَكَذَلِكَ الْأُرْزُ، كَمَا وَفَّرَ لِيَ الْقَطِيعُ كُلًّا مِنَ اللَّحْمِ وَاللَّبَنِ. وَبِالْإِجْمَالِ، تَطَوَّرَتِ الْأَشْيَاءُ كَمَا يَجِبُ أَنْ تَتَطَوَّرَ. وَصَنَعْتُ الْمَزِيدَ مِنَ الْمَلَابِسِ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ. وَكَانَ بول يُرَافِقُنِي فِي صُحْبَةٍ حَسَنَةٍ، إِلَّا أَنَّ شيبي كَبِرَ فِي السِّنِّ وَمَاتَ. وَبِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّنِي كُنْتُ أُفَكِّرُ فِي رُجُوعِي لِلْقَارِبِ طَوَالَ الْوَقْتِ، إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ قَطُّ. وَمَرَّتْ سَنَوَاتٌ عَدِيدَةٌ قَبْلَ حَتَّى أَنْ أَقْتَرِبَ مِنْ مَكَانِ رَبْطِهِ!

بِوُسْعِكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ مَعِي كَيْفَ كُنْتُ أَبْدُو بَعْدَ قَضَاءِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٍ كَشَخْصٍ مَنْفِيٍّ! كُنْتُ أَرْتَدِي مَلَابِسَ مِنْ جِلْدِ الْمَاعِزِ وَقُبَّعَةً كَبِيرَةً مُتَهَدِّلَةً، وَكُنْتُ طَوِيلَ الشَّعْرِ وَاللِّحْيَةِ، أَمَّا جِلْدِي فَكَانَ غَالِبًا أَحْمَرَ وَمُحْتَرِقًا. لَمْ أَكُنْ أَدْرِي أَيَّ شَيْءٍ عَنْ صَيْحَاتِ الْمُوضَةِ فِي وَطَنِي، وَأَظُنُّ أَنَّ هَذَا لَمْ يُشَكِّلْ فَارِقًا بِالنِّسْبَةِ لِي، فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَحَدٌ عَلَى الْجَزِيرَةِ لِيَرَانِي عَلَى أَيِّ حَالٍ!

الفصل الثاني والعشرون

أَثَرُ قَدَمٍ

ذَاتَ يَوْمٍ، خِلَالَ جَوْلَتِي الصَّبَاحِيَّةِ الطَّوِيلَةِ الْمُعْتَادَةِ، قَرَّرْتُ قَطْفَ بَعْضِ الْعِنَبِ لِعَمَلِ الزَّبِيبِ، لَكِنْ حِينَهَا انْتَابَتْنِي لَحْظَةُ شَجَاعَةٍ.

وَفَكَّرْتُ: «لَعَلِّي أَذْهَبُ لِأَتَأَكَّدَ مِنْ وُجُودِ قَارِبِي هُنَاكَ، فَأَنَا أَشْعُرُ بِالشَّجَاعَةِ الْيَوْمَ.» لِذَا بَدَلًا مِنْ زِيَارَةِ بَيْتِي الصَّيْفِيِّ انْعَطَفْتُ فِي مَسِيرِي بِاتِّجَاهِ الشَّاطِئِ لِلْمَكَانِ الَّذِي رُبِطَ فِيهِ الْقَارِبُ، وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ هُنَاكَ، وَجَدْتُ أَثَرَ قَدَمِ إِنْسَانٍ فِي الرِّمَالِ.

تَعَجَّبْتُ وَقُلْتُ: «آهٍ! لَا! مَنْ يَكُونُ هَذَا؟ لَا بُدَّ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْجَزِيرَةِ! لَا أُرِيدُهُمْ أَنْ يَرَوْنِي! وَلَا أُرِيدُهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا بِأَمْرِي! جَرَيْتُ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ طَوَالَ طَرِيقِ عَوْدَتِي لِلْمُخَيَّمِ. وَنَظَرْتُ خَلْفِي مِرَارًا وَتَكْرَارًا، بَيْنَمَا أَجْرِي. مَاذَا لَوْ وَجَدُونِي؟ مَاذَا سَيَفْعَلُونَ بِي؟ وَبَعْدَ الْجَرْيِ لِمَا يُقَارِبُ السَّاعَةَ، وَصَلْتُ عَائِدًا إِلَى سِيَاجِي، وَقَفَزْتُ عَلَى سُلَّمِي، وَسَحَبْتُهُ لِلدَّاخِلِ بَعْدَ صُعُودِي.

تَقَلَّبْتُ فِي فِرَاشِي طَوَالَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ؛ فَهُنَاكَ الْكَثِيرُ مِمَّا لَا أَعْرِفُهُ؛ فَهَلْ هُوَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَحَسْبُ، أَمْ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ؟ هَلْ سَيَأْتُونَ لِي؟ وَإِذَا كَانُوا قَدْ وَجَدُوا مَرْكَبِي، فَسَيَعْرِفُونَ أَنَّنِي هُنَا! وَكَانَ قَلْبِي تَتَسَارَعُ دَقَّاتُهُ، وَيَدَايَ تَرْتَعِشَانِ، وَخَشِيتُ مِنْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بَنَيْتُهُ كَانَ عَلَى وَشْكِ التَّدْمِيرِ.

مَرَّتْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ كَامِلَةٌ قَبْلَ حَتَّى أَنْ أُغَادِرَ مُخَيَّمِي، وَحَتَّى حِينِهَا، لَمْ أُرِدِ الذَّهَابَ، لَكِنَّنِي احْتَجْتُ الْمَاءَ وَكَانَ عَلَيَّ حَلْبُ مَاعِزِي، فَاتَّخَذْتُ مَسَارًا تَسَتَّرْتُ فِيهِ عَنِ الرُّؤْيَةِ